الأغنية الشعبية الثورية الجزائرية في المنطقة الشرقية
بين مقاومة الاستعمار و جمالية التعبير

الأستاذة : رحمة تواتي
الأستاذ الدكتور : عبد اللطيف حني
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب واللغات
جامعة الشاذلي بن جديد الطارف

ملخص :

يسعى هذا المقال لدراسة أحد أشكال التعبير الشعبي الجزائري المتمثلة في الأغنية الشعبية الثورية، من خلال الوقوف على نصوص الأغنية الشعبية في المنطقة الشرقية التي جسدت أهم موضوعات النزعة الثورية، والتي عملت فيها على على إبراز الصورة الحقيقة للاحتلال الفرنسي الذي كان إحدى المحن الكبرى، التي واجهها الجزائري في تاريخه الحديث، حيث قمنا بجمع شتات مختلف المقاطع الغنائية التي صورت بدورها المقاومة الفردية، والجماعية للجزائري إبان الاستعمار الفرنسيّ، محاولين الكشف عن الحس الثوريّ وارتباطه بها في جلّ موضوعاتها الغنائية التي حفظتها الأجيال .

Abstract:

This article seeks to examme one of the algerian people s expressions of folk song in Eastern Provincewhich embodied the most revolutionary trend topics and which worked to highlight the true image of French occupation which was one of the tribulations faced in modern history where we have gathered various lyrical passages which in turn portrayed individual and collective resistance to the French colonial trying to disclose the revolutionary sense and link them all at the lyrical themes saved by generations.

تمهيد :

الأغاني الشعبية خاصة الثورية منها مرآة ناصعة ،ينعكس عليها ما عاشه الشعب الجزائري طيلة سنوات الاستعمار، وتتمثل فيها حماسته، ونضاله، وتصديه لهذا الضغين الذي حاول طمس هويته العربية، والوطنية، فالأغاني الشعبية ،بالرغم من بساطتها، وسهولة ألفاظها إلا أنها تعتبر خير تراث شعبي خلفته الأجيال الماضية للأجيال الحاضرة، بعد أن تركت فيها عصارة تجاربها، وحكمتها.

وإذا تتبعنا الأغنية الشعبية في فترة الاحتلال الفرنسي وجدنا أنها، تضمنت موضوعات مقاومتيّة يمكن تصنيفها إلى مجموعات، نتباين في كل مجموعة ملامح المقاومة، التي كانت تسري في عروق الشعب الجزائري المناضل .

ولتحقيق هذه الغاية نفتتح بتعريفات مقتضبة لماهية الأغنية الشعبية الثورية؟ ،ثم ندلف مباشرة للحديث عن المواضيع التي تناولتها الأغنية الشعبية، أثناء فترة الاستعمار في محاولة منا للإجابة عن التساؤلات الآتية :

كيف ساهمت الأغنية الشعبية الثورية في بث روح المقاومة ؟ وهل نجحت في ذلك ؟ وإذا كانت كذلك فما هي أهم موضوعات النزعة الثورية التي جسدتها الأغنية الشعبية ؟

1–مفهوم الأغنية الشعبية الثورية :

إن محاولة الباحث وضع تعريفا مؤطر وشامل للأغنية الشعبية الثورية تجعله يقف أمام ثُلة من المصطلحات الغامضة و المبهمة دونما الوصول لتعريف جامع مُلَم لها. لهذا سنحاول تقديم تعريفا مُبسطا لماهية الأغنية الشعبية الثورية، معتمدين في ذلك على فك المصطلحين الرئيسين: الأغنية الشعبية،والثورية، عله يتضح المفهوم.

أ–الأغنية الشعبية:

الأغنية لغة: مأخوذة من الفعل غنى، والغناء ممدود في الصوت ،وغنى يغني أغنية وغناء.

وغنى: طرب وترنم بالكلام الموزون وغيره، ويقال: غنى الحمام صوت[1].

و كلمة الشعبية: صفة مشتقة من الاسم الموصوف شعب وتعني الارتباط بالشعب. وقد وقفت الباحثة **نبيلة إبراهيم** على تعريف مصطلح الشعب فقالت: « عندما نتحدث عن شعب ما فإننا نعني كل فرد من أفراده مهما كانت درجة ثقافته ،ومهما كان مستواه الاجتماعي »[2] أي أن الشعبية تمس جميع طبقات المجتمع.

و الأغنية الشعبية كما **يعرفها ألكسندر كراب** أنها: « قصيدة شعرية ملحنة مجهولة المؤلف كانت تشيع بين الأميين في الأزمان الماضية، ولبثت تجري في الاستعمال لفترة ملحوظة من الزمن ،هي فترة قرون متتالية»[3]

والى نفس المفهوم يذهب **فوزي العنتيل** فيعرفها: « قصيدة غنائية ملحنة، مجهولة النشأة،نشأت بين العامة من الناس في أزمنة ماضية وبقيت متداولة أزمانا طويلة، وفي هذا النوع من الأغاني لا يهتم الناس بمؤلف ولا ملحن».[4]

بمعنى أن الأغنية الشعبية شكلا من أشكال الفنون التعبيرية في الأدب الشعبي، وهي إبداع شفوي ،يتغنى بقيم الشعب ،ويصور واقعه، ويعكس هويته كباقي الفنون الأخرى.

ب–الثورية:

تعددت التعريفات المقدمة للثورة بحسب مقاصد مجالاتها المختلفة الاجتماعية منها والثقافية والسياسية...و تعني في إجمالها:« تغيير مفاجئ في الأوضاع السياسية، والاجتماعية للدولة ،بوسائل تخرج عن النظام المألوف، ولا تخلو عادة من العنف، وان قيل بوجود ثورات بيضاء....والثورة الحقيقية هي التي تنبعث من الشعب، وتعبر عن ميوله ورغباته، وان دبرها وقادها أشخاص معينون». [5]

ولأن الأغنية الشعبية من صنع الشعب و نابعة من روحه و خلجاته فقد عبرت ببراعة تامة عما تعايشه فئات الشعوب المسحوقة، وما تكابده من مصاعب و محن في قالب موسيقي ملحون، يصور عاداته و تقاليده و معاناته فهي: «مرآة صافية ،ينعكس عليها واقع المجتمع حيث تصوره تصويرا دقيقا دون مبالغة أو مغالاة،بل إنها ترفض أي عنصر يتصف بالمبالغة في تصوير هذا الواقع»[6] ولأن الاستعمار الفرنسي واقع مرير ومحنة عايشه الشعب الجزائري في تاريخه الحديث،تصداه بالنفس و النفيس،بروح المقاومة الملتهبة التي سجلت تفاصيلها في الأغنية الشعبية الثورية «لذلك نجد الحس الثوري باديا في الشعر الشعبي بوضوح نتيجة لهذا الترسب السياسي الإصلاحي ،الذي يستنير نخوة الجزائريين إلى الجهاد ، ولهذا اصطبغت القصائد الشعبية في مضمونها ،وفي أفكارها ، وعواطفها بالروح الدينية الجهادية ، ولذلك كانت المشاعر الوطنية تتفجر من خلالها : فهي تصنف الأعداء وتمهد للثورة.»[(7)].

فالأغنية الشعبية الثورية هي : «الاحتجاج المقترن بوعي طبقي ،والسلاح الذي ترفعه الطبقات الكادحة الثورية ،ضد ظروف معيشتها المنحطة ،إنها الكلمة الثائرة والحرف المخضب بعرق ،ودماء العمال والفلاحين،إنها أغنية البؤس في مواجهة الترف البرجوازي والإقطاعي،الأغنية العادلة في مواجهة الاستغلال,أغنية التحرير الوطني والطبقي »[(8)].

فهي لسان الثورة وصورة نضال الشعب الجزائري ضد الطغاة تحمل بين ترانيمها مأساته ونضاله وبطولاته فالأغنية كما قال أبو القاسم خمار: «ليست مجرد وصف للفعل وحسب ،وإنما هي بالدرجة الأولى كشعر تحريضي على الفعل، فشعر الحروب والمعارك يتعارض مع الفعل الثوري، بل يخدمه ،ويحرض عليه، ويحملهم على التضحية في سبيل الذات العامة .» [(9)]

ويتبين لنا مما تقدم أن الأغنية الشعبية كانت تؤجج حماس الشعب وتزيد من فعاليته ،وتحاول طرح مفاهيم الثورة وشرح واقع الحال الذي يعيشه الشعب، كما أنها تشير إلى أهميته جمع الحقوق ونبذ التفرقة والتشتت .

2–خصائص الأغنية الشعبية :

تحمل الأغنية الشعبية الثورية، من الخصائص الفنية ما يجعلها فنًا متميزا بين الأنواع الغنائية الأخرى،فهي نوعا من الغناء الذي عرفته الثقافة الشعبية ،وارتبطت بدورة حياة الإنسان، وطرحت ضمن موضوعاتها هُمومه وانشغالاته نحو تحقيق أفضل شروط الحياة الخالية من القهر لذلك نجد الأغنية الشعبية الثورية تنفرد بجملة من السمات أبرزها نجد :

أ–قصيدة شعبية ملحنة :

تندرج الأغنية الشعبية ضمن إطار الشعر الشعبي ،وما يحويه من الخصائص الفنية كالشعبية واللحن،القائم على الجرس الموسيقى في كلماته وألفاظه ، فيجد إقبالا من الجماهير الشعبية إنتاجا وحفظا ،فيتغنى بها الفرد وكأنه صاحبها لأنها لسان حاله، وواقعه فهي :«تختلف عن غيرها من سائر أشكال التعبير الشعبي في كونها تؤدى عن طريق الكلمة واللحن معا، لا عن طريق الكلمة وحدها، ومن ثم كان البحث عن الأغنية الشعبية ذا شقين، شق يختص بالكلمة، وشق يختص باللحن والموسيقى. »[(10)] .

ب–مجهولية المؤلف :

هناك إجماع على أن الأغنية الشعبية ،مجهولة المؤلف ،واللحن وفي هذا يقول ألكسندر هجرتي كراب الذي كرس جهوده لدراستها محاولا تعريفها بأنها : « قصيدة مجهولة المؤلف، كانت تشيع بين الأميين في الأزمان الماضية ،ولبثت تجري في الاستعمال لفترة ملحوظة من الزمن، هي فترة قرون متتالية. »[(11)] ويُرجع الباحثون ذلك إلى أن القصد من جهل أصل الأغنية إنما يعني: «القدم وتباعد الزمن بين ظهور الأغنية وحتى اللحظة التي التحقت فيها بالشعبية».[(12)]

ج–الذيوع والانتشار :

من السمات الأساسية و العناصر المطلوبة في الأغنية الشعبية الانتشار، والتداول بين الناس«وهذا شرط ضروري وحيوي ،وإلا لما أصبحت أغنية شعبية إلا أن الانتشار لابد وأن يقترن بالتداول وإلا انقطعت حلقات السلسلة في قنوات وصولها، ونساها الشعب، وضاعت واندثرت ولم تعد تحسب على التراث الشعبي»[(13)].

د–المشافهة:

فهي تنتقل إلينا عن طريق الشفهية، فلم تدون،أو تكتب،بل هي محفوظة بالذاكرة،أوتُجمع من أفواه الرواة مشافهة «ولا يمكن أن تتواجد بشكل نهائي وأصيل، فهي دائما تتغيروتتبدل أثناء عملية الانتقال بالمشافهة ، وهي تارة تزداد غنى نتيجة لهذه التغيرات، وكثيرا ما تفتقر وتصبح ذات عذوبة مصطنعة ومبتذلة تارة أخرى»[14]

هـ–التعديل بالزيادة والنقصان :

عنصر مطلوب هو الأخر، أثناء التواتر الشفهي للأغنية ،بشرط المحافظة على جوهرها ،لأن :«تناقل الأجيال للأغاني عن طريق المشافهة ، لم يكن أمينا كل الأمانة ، ولا صادقا كل الصدق، لأن الذين كانوا يتلقون الأغنيات عن طريق المشافهة ،كانوا يسقطون منها أشياء ، ويبقون على أشياء ، ولذلك تفقد طابعها .» [15]

3–موضوعات المقاومة في الأغنية الشعبية :

تميزت الأغنية الشعبية خاصة الثورية منها بإذكاء روح الحماس، وبعث التقاليد الثورية لدى الجماهير الشعبية بقصد تهيئتها لخوض غمار النضال البطولي، ويمكننا أن نرصد جملة من الموضوعات التي تمحورت حول ذلك وهي كالأتي :

3–1 وصف المعارك وبعث الحماس :

للأغنية الشعبية الثورية إشراقا ثوريا، وملأ يستثير الإعجاب فهي تتأثر وسرعة مذهلة، ويتكيف تام مع الأحداث السياسية التي تعتبر إكمالا لموضوعاتها، وجزءا من مهماتها متمردة في سرد الأحداث التي تتصل بالثورة الجزائرية مصورة أهم المعارك التي خاضها المجاهد الجزائري ضد المستعمر الفرنسي ،وفي التغني بما فعل جيش التحرير من أعمال يُمْدحون من أجلها يَرِد ما يلي: [16]

نُـــــــــــــوفمبَر رَانِي نْحيِيْـــــــــــــــــك نُـــــــــــــــــوفمبَر رَانِي نْحيِيْـــــــــــــــــك

رَاك ذِكـــــــرَى يتْلاقَـــــــى المُجاهِـــــــد فَيـــــــك خـــــــوُيَا المُجاهِـــــدْ ثَـــــورة رَبعَـــــة وْخَمِســـــيْنْ

هَزِيـــــــتْ الســــــلاَح غَـــــادرت الــــــدَار خْليْـــــــت مَرتِـــــــك وَاولاَدِك صْـــــــغَار

يلخص المقطع أهم حدث وقع سنة 1954 والذي هز الوطن العربي ، والعالم أجمع ألا وهي: ذكرى اندلاع ثورة نوفمبر «فما إن دقت ساعة منتصف ليلة الاثنين ،فاتح شهر نوفمبر 1954 م الموافق ل 15 ربيع الأول 1374هـ حتى كانت نار الثورة قد انفجرت واندلع لهيبها في مختلف أنحاء القطر الجزائري بجهاته الأربعة. »[17] وفي هذه الليلة التاريخية رفع المجاهدين راية الجهاد دون الاكتراث بالمخاطرة فردد المغني الشعبي هذه المقطع لبعث الحماس،والفخر في نفوس مستمعيها فهذا المجاهد صعد الجبل من أجل بلاده تاركا أسرته من أجل وطنه .

يواصل المغني الشعبي نقل الأحداث الثورية بكل تفاصيلها فيصف لنا ما عانته زوجة المجاهد في غيابه من خوف ،مِنَ المستعمر الذي كان يتردد على المنزل بين الحين، والأخر مُهددا استقرار صغارها فيقول:[18]

وْجَاهَـــــا لْاسْـــــتِعْمَارْ قَلْهَـــــا وِيـــــنْ رَاحْ مْـــــولَ الـــــدّارْ قَـــــاتْلُوا مَـــــا نِـــــدْرِي

قَاتِلَـــــهْ نْفَضِـــــلْ نْمُـــــوتْ ومـــــاَ نِمْشِـــــي دِيْـــــنِي مَـــــا بِسْـــــمِحْلِي

ضْـــــرَبْهَا وخَـــــلاَ دَمِعْهَـــــا بِجْـــــرِي حْرَقِلهَـــــا الـــــدَارْ ولفْـــــرَاشْ وقُـــــوتْ الْغَـــــارْ

صور المقطع أثار الظلم، والغبن الذي سلطته فرنسا على الجماهير الشعبية خاصة النساء، لكن هذا لم يضعف من عزيمة الجزائريين وإيمانهم القوي، وتمسكهم بمبادئ دينهم الإسلامي،وقناعتهم باسترجاع أرضهم ووطنهم فالبرغم لِما تعرضت له الزوجة من تعذيب للاعتراف بأسرار الثوار في الجبال إلا أنها وقفت صامدة في وجهه، مقاومة لشراسته رافضة التعاون معهم.

فمثل هذه الأغاني تبعث في أنفسهم الحماسة للثورة، والاستقرار الذهني المتحمس لمواجهة المستعمر، والرد على أعماله الإجرامية الشنيعة ولو بالكلمة.

وما لبثت أن انتعشت المقاومة الوطنية الشعبية بالشرق الجزائري بمعركة أثلجت قلوب المناضلين بل الشعب كله فتغنوا بها قائلين:[19]

صَـــــلّوا عْلـــــى النَـــــبِي البَشِـــــيْر و اِنْـــــتَ يَاغَـــــالِي الْقْـــــدْرَة عِـــــيْنْ المُجَاهـــــدِيْن

الْقِصَـــــــــة جَابُوهَـــــــا الرَجالَـــــــة و الجِـــــــيشْ رَاهـــــــو في حالَـــــــة

يا رَبِي تُســـــــــــــتِر الحَالـــــــــــة أوْ عـــــــــــيْن المُجاهـــــــــــدِيْنْ

القِصَـــــــــة جابَهَـــــــا مَـــــــبرُوكْ وارْبحنـــــــــــا المـــــــــــرُوكْ

ذْرَابـــــــــــو فَرَنْسَـــــــــــا مَـــــــــــتْرُوكْ عَلـــــــــــى طـــــــــــولْ الســـــــــــنِينْ

صـــــــــــلُوا عْلـــــــــــى البَشِـــــــــــيرْو اِنْـــــــتَ يَاغَـــــالِي الْقَـــــدْرَة عِـــــيْنْ المُجَاهـــــدِيْن

تروي الأغنية الشعبية مآثر،وبطولات قام بها أبناء الجزائرأمثال: مبروك وبوجمعة المروكي، اللذان كانا عضوين في معركة رمل الزيرين بالشافية –الطارف– في أفريل 1959 ، حيث استعمل فيها العدو مخطط الطيران وكذا الخطان المكهربان شال الذي يمتد من «ساحل البحر المتوسط بمحاذاة الحدود التونسية، انطلاقا من باب البحر بأم الطبول مرورا بالعيون،رمل السوق، الفرين، عين العسل، الطارف،الزيتونة،عين الكرمة، بوحجار،إلى غاية نقرين، مرورا بسوق أهراس وتبسة»[20] ، وموريس الممتد من « الشمال إلى الجنوب انطلاقا من بحر (البطاح) إلى بن مهيدي،الذرعان،شيحاني،بوشقوف، وصولا إلى واد سوف، ويغطي مسافة طولها تقريبا 460 كلم2 ».[21]

إلا أن النصر في المعارك والعبور كان حليف الجزائريين، فأسفرت العملية عن مقتل عشرة عساكر فرنسيين ،كما تتخلل الأغنية أسماء لبعض المجاهدين الذين قادوا الثورة، والذين أبلوا بلاءا حسنا فيها أمثال: حداد عبد الكريم ، المدعو عبد النور الذي كان ممن نصبوا كمين خنقة عرجون ببوثلجة في مارس 1959، الذي كان بقيادة الكتيبة الأولى : عيادي محمود لذلك نجد الأغنية تقول :

القصـــــــــــة جابهـــــــــــا المنـــــــــــور يا وعـــــــــــلاه نـــــــــــدور

فأسماء المجاهدين الشجعان كانت تبعث الحماسة في نفوس سامعيها وتشجع على الاقتداء بهم في أرض المعركة، فالأغاني الشعبية التي وصفت المعارك كانت بمثابة رسالة لايقاض ضمير الشعب ،وغرس فيه الروح الوطنية جاعلة منهم رجالا صناديدا ،لايخافون المنية،ويفدون بأرواحهم، ودمائهم في سبيل بلادهم .

3–2 الحث على الجهاد و الدعوة إلى الوحدة :

عمل المغني الشعبي من خلال أغانيه على زرع الحماس ، وروح المقاومة في نفس الشعب الجزائري ، ودعاه إلى الجهاد والقتال من أجل استرجاع حريته المسلوبة ، والتي من خلالها يحافظ على عروبته،وهويته،وأماله الجزائرية ،التي كادت أن تؤخذ منه بالقوة حينما استهدف المحتل لغته وثقافته القومية وعمل على طمسها . فكان بذلك المغني الشعبي العنصر المحرك لشحن الهمم،والدعوة إلى الجهاد،و التجنيد من أجل حفظ البقاء،واسترجاع ما أخذ منه عنوة وفي الحث على الجهاد أغاني كثير نذكر منها: [22]

أَيْمَـــــــا عْـــــــلاَشْ تِبكِـــــــي عْلِيَـــــــا والشُـــــــوك نَاقِـــــــبْ رِجْلِيَـــــــا

جَزايِـــــــــــرْ وَاجـــــــــــبْ عْلِيَـــــــــــا والله مَـــــــا نَرجَـــــــعْ إلّا إذا جبـــــــتْ الحريـــــــة

صورت لنا الأغنية أحد الشبان الراغبين في التجنيد، يصبر أمه الباكية، ويستعجل ، للذهاب للجهاد في سبيل الوطن المسلُوب،ونيل الحرية،والاستقلال،ومحاربة الفرنسي الكافر،وهي رغبة مُلحة ذات مرجعية دينية مضمونها الجهاد في سبيل الوطن .

وقد أحس المغني الشعبي بضرورة الاتحاد ضد العدو،فأورد نصوصا حماسية تدعو المجاهدين للدفاع عن وطنهم حيث يقول: [23]

أذَاكْ العَسْـــــــــكِر اللِـــــــــي جَـــــــــانَا جـــــــــاَنَا مِـــــــــن تِحْـــــــــت الكَـــــــــافْ

أُضْـــــــرِب يَاسِـــــــي رَابـــــــح أذَاكْ العَسْـــــــكِر اللِـــــــي جَـــــــانَا جـــــــاَنَا مِـــــــن تِحْـــــــت الكَـــــــافْ

أُضْـــــــــــرِب يَاسِـــــــــــي رَابـــــــــــح شَـــــــــــعلْ فِـــــــــــيهُم النَـــــــــــار

أذَاكْ العَسْـــــــــكِر اللِـــــــــي جَـــــــــانَا جـــــــــاَنَا لِلْـــــــــرِيْحَيْنْ

أُضْـــــــــرِب يَاسِـــــــــي رَابـــــــــح خُـــــــــويَا يْرِفْـــــــــرَفْ لَعْـــــــــلاَم

كانت هذه بمثابة دعوة مفتوحة من المغني لزرع الحماس،ونزع الخوف من نفوس المجاهدين الثوار، وحثهم على القتال،ورفع السلاح في وجه العدو الغاشم .

فكان للأغنية الشعبية الثورية دور كبير في تشكيل، وصقل الجزائري الثائر، والدفع به للجهاد من خلال كلمات معبرة ذات صيحات مدوية ،فالأغنية الشعبية «أنيسة الجندي في الجبل ،والفدائي في المدينة، والمناضل في القرية، وكانت جليسة الزوجة التي اغترب زوجها مجاهدا في سبيل الاستقلال، بيد أنها نماذج السياسي الذي يريد بث الروح الوطنية في محدثيه ،ومستعمليه »[24]

فعشرات الأغاني الشعبية ذات مضامين وجدانية أخذت تعكس روح الثورة، وتنطلق من مناطق متعددة لتدل على وحدة الشعب الجزائري،ووقوفه كرجل واحد ضد الاستدمار الفرنسي المتسلط داعية المجاهدين لتحقيق الحرية ونيل الاستقلال، فيقول :[25]

يا خُـــــــــــوتِي المُجَاهْـــــــــــدِين كُونُـــــــــــوا خَـــــــــــاوَه مِتَحـــــــــــدِينْ

أذَا مُتُـــــــــوا مُوتُـــــــــوا عَلـــــــــى الِـــــــــدين وإذَا عِشـــــــــتُوا جِيبُـــــــــوا الحُرِيَـــــــــة

يمكن للمتلقي أن يلاحظ بين ثنايا هذا المقطع أن المغني الشعبي تعمد توظيف ألفاظ ذات وهج ثوري،(مجاهد، موت، حرية .....) لأنه يروم لاستغلال ما فيها من دلالات تدفع للجهاد،والفداء من أجل الوطن.

كما أنه وظف ألفاظ تدل على التماسك والاتحاد (خاوة، خوتي، متحدين...) كدعوة مفتوحة منه للتضامن والاتحاد الذين يحققان النصر،وبدونهما لا يمكن الوصول إلى الأهداف المنشودة ،لأن العمل الثوري عملا جماعي،وحتى المسؤولية جماعية من أجل جزائر الغد.

3/3 ذم العدو و التشهير بالخونة:

لقد كان الاحتلال الفرنسي إحدى المحن الكبرى ،التي واجهها الشعب الجزائري في تاريخه الحديث،فطيلة 124 سنة والسلطات الاستعمارية تحاول وبكل ما في جهدها تثبيت دعائم حكمها المتداعي بكل وسائل التنكيل ،والاضطهاد مما ولد مشاعر الغضب ،والسخط على العدو الفرنسي، وقد صورت الأغاني الشعبية الثوريّة هذه المشاعر بطريقة خفيّة لكنّها تصرح فيها في الوقت ذاته بالتشفي في فرنسا ، فالمغني الشعبّي يريد الإطاحة بها ،وإذلالها ،والإنقاص من مكانتها فيقول:(26)

اللهْ يُنصِـــــــــر حِـــــــــزِب الثّـــــــــوارْ	**حِـــزب الثُّـــوار اللِـــي مْعـــاَه هَانِـــتْ لِعمـــارْ**
مُسْـــيُو مَـــوريْس يحسِـــبهَا قَفْـــزَة بَارِيـــسْ	**قـــال غُـــدوَه نمشـــي للِتَفتـــيشْ يِســـهْزاَ**
حـــتِ مِلعشـــه يجْـــرِي و يعَمِـــر فالِقُوميّـــه	**قَـــالتِلُو الُرومِيَـــه هـــاَلخَطَرة تجْـــي جِينِـــيرالْ**
يحمـــل فِـــيهم و يقُـــول غـــدوَه نِـــديهْم	**نَلقـــى الفَلاّقَـــة نِفْنـــيهمُ مَـــا نخْلِـــي لِـــيهُم ديارْ**
لمَّ سِيكســـيُون و نجِيـــب الكَـــامُيون	**الَّراجـــل يمكِـــن مجْنُـــون اللِـــي مَاشِـــي جْهّـــارْ**
صـــاَرِت لِفجَـــر صَـــبتلُو كَاسِـــين خَمروِيـــه	**جَاهَـــا لخِـــبَرَ عَـــادِت تِنْـــدِب وَسَـــط الـــدَارْ**
كِـــي طَـــاحُو فِيـــه عَـــاد ازْبِـــل فِي عِينِيـــه	**هَالعَســـكِر يَاخـــي وِشْ بِيـــه فْلاَلِـــيْسْ جُوهَـــا**

صورت لنا هذه الأغنية دلالات السخرية ،والتشّفي بفرنسا، وأعمالها البغيضة مُهددا إياها أنها ستبقى دائما مغلوبة على أمرها، مهزومة (–الله ينصر حزب الثّوار–) فالمسلمون فعلو بالكفار هزائم رغم قوتهم،وعددهم،وعتادهم.....وفرنسا أيضا رغم أفعالها الشنيعة من قتل،ونهب،ومجازر،وتعذيب للثوار،والمجاهدين،إلا أنها ستهزم – فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة–

فالجزائري وقف بشجاعة أمام الظلم ،والقهر كيفما كان مصدره استعمارا أجنبيا متسلطا،أو خيانة،وسطوة أهلية تخدم المستعمر،فجاءت الأغاني الشعبية الثورية لتصف هؤلاء الخونة بأقبح النعوت،وشهرت بهم حتى يعرفهم الوطنيون المخلصون لبلادهم،ولكي يتقون شرهم،حيث عرضت لنا نصوص الأغاني الشعبية أعمالهم ومواقفهم الخبيثة ،والدنيئة، وأطلقت عليهم عدة ألقاب فمنهم من سماهم ب: الحركه، والبياعه،والقومّيه، والعملاء.

وتقول الأغنية في التوعد بهم:(27)

والله والله ياالقُوميّـــــــــــــــــــــــهْ	**بـــــــــرَبِي نِـــــــديُو الحُرِّيَّـــــــــهْ**
والله والله يالقّـــــــــــــــــــــــوادْ	**نَربحُـــــــــو و نِـــــــــدُوك للـــــــــوَادْ**

تطرقت هذه الأغنية إلى ما كان يتلقاه القومي ،أوالقواد كما جاء فيها من تهديد ،فقد كان المجاهد يُذكِر هذه الفئة الخائنة بالمصير الذي ستتلقاه بعد أن تنال الجزائر حريتها،واستقلالها،وهو العِقَابْ لأنه لامكان لهم في أرض الشرفاء.

وتقول الأغنية في وصف هؤلاء:(28)

ازْهُـــــــوا ازهُـــــــوا يالقُوميّـــــــــهْ	**واضّـــــــــربُو الطبـــــــــــولْ**
طَيشـــــــتُوا دّرابـــــــــو الجزايـــــــــرْ	**وتَبِعتُـــــــــوا دِيغـــــــــــولْ**

بينت الأغنية مدى طمع الخائن في تحقيق طموحه وأهدافه الشخصية على حساب وطنه، فنقل أسرار بلاده وانحاز للعدو ،وتجند في صفوفه فباع ضميره ،دينه ووطنه.

ويوجه المغني الشعبي نداءا إلى الخونة يذمهم فيها ويُشهر بأفعالهم:(29)

شُـــــوفُو شُـــــوفُو يَا لُـــــــولاَدْ	**والنّـــاسْ اللِـــــي خـــــانُو لِـــــبلاَدْ**
كْبَـــــار الـــــــرُوسْ و القِيـــــادْ	**وزَادُوا عْلينَـــــــا القُومِيـــــــهْ**

ولم يكتفي المغني الشعبي بالتشهير بالقومي فقط، بل ذمّ زوجته أيضا، واعتبرها هي الأخرى خائنة فصورها في أقبح الصور فيقول:(30)

اجُنـــــدِي يَا خُـــــوياَ مَـــــا تِمْشِـــــيْش فالفِرقَـــــه فْرَنسَـــــا الغّـــــدَارة تُقتلِـــــك بِالدرقـــــهْ

مَـــــرّت الجُنـــــديّ عِنـــــدَها نَابْ ذّهـــــب ومَـــــرّت القُـــــومّي عنـــــدها نَاب حْطـــــبْ

مـــــرّت الجُنـــــديّ قَاعـــــدَه فَـــــوق سَـــــرِير ومَـــــرّت القُـــــومي قَاعـــــده فُـــــوق لِحصِـــــيرْ

مـــــرّت الجُنـــــديّ تَلـــــبس و تَنِحـــــي ومـــــرّت القُـــــوميّ تُطِلـــــب فِي رَبّي

و في الأغنية عملية مفاضلة بين زوجة الجنديّ المنّاضل المحب لوطنه ،ومستّعدا لتضحية بنفسه من أجله ،حيث قدمها في أحسن صورة، لما كانت تقدمه من دعم لزوجها ،فبينما كان هو الجبل يكافح الاستعمار ،كانت هي تهتم بالأسرة ،فلا عجب أن يقدمها في أبهى ،وأجمل صورة، بينما زوجة القوميّ الخائن التي فضلّت حياة الرّفاهية فقد صورها مذمومة مدحورة.

وفي موضع أخر يقول:[31]

يَانْســـــــــــا القُومِيّـــــــــــه طَيْبـــــــــوا القَهْـــــــــوَه عَالرِيشـــــــــوَا

اهَـــــــــارْ تـــــــــرُوح فْرَنسَـــــــــا وِيـــــــــنْ رَاح تْعِيشُـــــــــوا

كان هذا المقطع بمثابة تحذير لنساء الخونة ،وتذكيرهم بعزم الشعب الجزائري على نيل الاستقلال،واسترجاع حريته، وطرد العدّو من أرضه،ومع خروجه ذليلا منهزما ،سوف يخرج معه كل الخونة نساؤهم،وأبناؤهم.

4/3 الإشادة بانتصارات المجاهدين:

تُمجد الأغنية الشعبيّة الثوريّة البطل المجاهد ومجموعة من الثّوار،احتفالا بانتصاراتهم المحققة، والتي ألحقت، ومن الأغاني التي تتغنى بأبطال الثورة نجد هذه التي تخاطب وتحذر "بن سالم:" من غد العدو : [32]

حْـــــذِرْ ابِـــــنْ ســـــاَلم أنَا أُخَيِـــــك مِسْـــــكِينْ رَاكِـــــشْ فِي شِـــــعْبَه و جنُـــــدو خَمِســـــينْ

أُوكِيجـــــاَهُم بِـــــنْ ســـــاَلم رَّتِلهُـــــم تَرّتيـــــلْ وِينـــــك يا بِـــــنْ ســـــاَلم فَـــــدَّايْ الثّـــــاْر

اِنْصِـــــبِت لِبَياسَـــــه وشَـــــعِلت النِـــــيرَانْ عَ نَاحِيـــــه بِـــــنْ ســـــاَلم قَطِـــــع الْسِـــــيلاَنْ

مجدت هذه الأغنية ،وأشادت بشاهمة وتضحية المجاهد عبد الرحمان بن سالم أحد أبطال منطقة الطارف،وقائد الفيلق الثاني للتنظيم العسكري بالمنطقة،الذي كان أثناء المعارك فارسا مغوارا،أسال دماء فرنسا،وأفشل خططها، وصورته مشهدا يبعث الفخر،والاعتزاز بشهدائنا.

وفي موضع أخر يتغنى بالشهيد العاتي الذي ضحى بروحه في سبيل وطنه فعاش بطلا ،ومات شهيدا قائلا:[33]

العَـــــــــــاتِي المَشـــــــــــكور لمْكَاحِـــــــــل و احـــــــــرَارِيسْ تْقُـــــــــولْ

العـــــــــاَتِي وِلـــــــــد أُمَـــــــــه ولاَ أَبيَـــــــــار وَ لاَ بْحُـــــــــور تْهِمَـــــــــهْ

خُبطُـــــــــوه عَلـــــــــى قَلبـــــــــه جَـــــــــاني خَـــــــــبرَه غِـــــــــير فِي كَـــــــــاغِطْ

رَاهِـــــــــي رَايـــــــــدَهْ و مْقَـــــــــادِير وَمْكاتِيـــــــــب اذَاتـــــــــوْ العـــــــــاتِي المشـــــــــكورْ

فهؤلاء هم أبناء الجزائر عندما يتعلق الأمر بأرضهم، ودينهم فقد خلدت ذكراهم الأغاني الشعبيّة،وما العاتي و بن سالم إلاّ رمزا من رموز المقاومة الوطنية.

ومن المؤكد أنّ الغاية التي يرمي إليها المغني الشعبيّ لا تستهدف تكريس عبادة الشخصيّة، وإنّما يرمي إلى تهيئة المتلقي للمقاومة ،وغرس هذه الشخصيّة في نفوس سامعيها.

خاتمة:

بهذا العرض البسيط حول تجربة المغني الشعبيّ ،في إذكاء روح المقاومة، الوطنية من أجل الإطاحة بالمستعمر، يتبين لنا أن للأغنية الشعبية الثورية ،الدّر الفعّال في تأجيج حماس الجماهير، من خلال طرحها لأساليب المقاومة اللّفظية، فقد عملت على نقل واقع الحال الذي عاشه الشعب الجزائري، إبّان فترة الاستدمار، فأشارت إلى أهمية جمع الصفوف ،ونبذ التفرقة، والتشتت ،وبعث التقاليد الثورية لدى المتلقي ،بقصد تهيئته لخوض غمار النضار البطولي لاسترجاع أرض الوطن.

الهوامش والمراجع:

(1) :ابن منظور : جمال الدين مُحَمَّد بن مكرم، لسان العرب، القاهرة،دار الحديث، 2003،مادة: غني.

(2) : نبيلة إبراهيم: أشكال التعبير في الأدب الشعبي، مكتبة النهضة العربية،مصر ط3 1971، ص17.

(3) ألكسندر هجرتي كراب: علم الفلكلور ، ترجمة أحمد رشدي صالح، وزارة الثقافة المصرية، دار الكتاب العربي ،القاهرة 1967،ص 253.

(4) فوزي العنتيل: بين الفلكلور والثقافة الشعبية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1978.

(5) إعداد مجموعة من الأساتذة، معجم العلوم الاجتماعية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1975، مادة ثورة ص 205.

(6) مجدي مُحَمَّد شمس الدين: الأغنية الشعبية بين الدراسات الشعبية والغربية، الهيئة العامة لقصور الثقافة ،مصر،2008،ص109.

(7)): المرجع نفسه، ص 21.

(8):سليمان نور، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير ، دار الملايين ، بيروت ، ط 1 ، 1981 ، ص 128.

(9):أحمد مزدوز الثورة الجزائرية في الشعر المصري المعاصر ، ميدان الأوبرا ، القاهرة ، ط1 ، 2005 ، ص 28 29 .

(10):نبيلة إبراهيم ،أشكال التعبير في الأدب الشعبي ، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، ط3، د.ت، ص 237.

(11):ألكسندر هجرتي كراب ، علم الفلكلور ، ترجمة : أحمد رشدي صالح ، وزارة الثقافة المصرية ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، د.ط 1967، ص 253.

(8): عبد القادر نطور، الأغنية الشعبية في الجزائر، منطقة الشرق الجزائري نموذجا،بحث مقدم لنيل شهادة الدكتوراه، إشراف الدكتور مُحَمَّد العيد تاورتة، جامعة منتوري قسنطينة ، 2009، ص45 .

(9): المرجع نفسه، صفحة نفسها.

(14):أرنست فيشر، ضرورة الفن، ترجمة ميشال سلمان، دار الحقيقة للطباعة والنشر، ط1 ، سنة 1970 ، ص32.

(15):عبد القادر ناطور، ماهية الأغنية الشعبية، مجلة البحوث و الدراسات الإنسانية، سكيكدة،العدد 4، ماي 2009، ص 338.

(16):عقاب الصالحة، تجليات الحس الثوري في الأغنية الشعبية الثورية، بمنطقة بوثلجة، دراسة ميدانية، مذكرة ماستر ، إشراف :د.عبد اللطيف حني، جامعة الشاذلي بن جديد، الطارف، 2015، ملحق الأغاني الشعبية، ص 109

(17):عبد الرحمن مُحَمَّد الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط7 ، ج 4 ، 1994 ص395 ،396.

(18):عقاب الصالحة، تجليات الحس الثوري في الأغنية الشعبية الثورية ، ملحق الأغاني الشعبية ص 109.

(19):المرجع السابق ، ص 111.

(20):برنامج أعمال الملتقى الأول لخطي شال و موريس ، الطارف، فيفري 1998، ص 23.

(21):عمار قليل، ملحمة الجزائرالمجيدة، دار البعث ، قسنطينة، ج2، ط1، 1991،ص 67.

(22):سهيلة سلمي، الأغنية الشعبية الجزائرية الثورية ما بين 1954 و 1962 منطقة الطارف أنموذجا ، جمعا و دراسة ، مذكرة ماستر ، إشراف د. عبد اللطيف حني ، جامعة الشاذلي بن جديد ، الطارف،2014 ، الملحق، ص 33 .

(23):المرجع نفسه: الملحق ص 10.

(24):العربي دحو، الشعر و الثورة التحريرية بدائرة مروانة 1954- 1962 ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، د.ط، ص87.

(25):سهيلة سلمي ، الأغنية الشعبية الجزائرية الثورية في منطقة الطارف ، مذكرة ماستر ، الملحق ص 31.

(26):المرجع نفسه ، الملحق ص 12.

(27):المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

(28):المرجع نفسه، الملحق ص 27.

(29):.عقاب الصالحة، تجليات الحس الثوري في الأغنية الشعبية الثورية ، ملحق الأغاني الشعبية ص113.

(30):المرجع نفسه، الملحق ص 21.

(31):المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(32):المرجع نفسه ، الملحق ص 36.

(33):عقاب الصالحة، تجليات الحس الثوري في الأغنية الشعبية الثورية ، ملحق الأغاني الشعبية ص112.